مُلاقاةُ العلامة
قراءة في سيميائيات جيل دولوز

د. رسول محمد رسول*

«هناك دائماً العشب بين الأحجار»
ج . دولوز

كان الفيلسـوف الفرنسـي جيل دولوز معاصراً لمواطنـه جاك دريدا (١٩٣٠ - ٢٠٠٤)، فبينما كان هذا الأخير قد نشـر في عام ١٩٦٧ ثلاثة مـن كتبه، وهي «فـي علم الكتابـة»، و«الصـوت والظاهـرة»، و«الكتابة والاختـلاف»، التـي ضمَّـت نظريته فـي العلامات إلى جانـب نظريات أخـرى، كان دولـوز قد خاض غمـار البحث في السـيميائيات عبْرَ كتابه «بروسـت والعلامـات، ١٩٦٤»، الذي دشّـن فيه قراءة سـيميائية بدت مثيـرة في نتائجهـا النظرية حتى تنامـت في كتابه «الاختـلاف والتكرار، ١٩٦٨»[١] الذي بذر فيه الأسس الفلسفية لنظريته في السيمياء.

فـي مؤلَّفاتـه المتعدِّدة، أكَّـد جيل دولـوز (١٩٢٥-١٩٩٥) ضرورة اللجوء إلى فهم جديد للفلسفة ولمفاهيمها ولتاريخها العريق من خلال الانخـراط الفاعـل في الحياة. ومن هنا يرى دولوز أن الفلسـفة ما زالت صامـدة بوجه من يروِّج لموتها، وصمود الفلسـفة هذا يتطلَّب احتفاءها بالإبداع من خلال وظيفتها الإجرائية والمعرفية، كون الفلسفة هي بمثابة «الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم، في حين أن موضوعها هو إبداع مفاهيم دائمة الجدَّة»[٢]. مثلما دافع دولوز عن وجود الفلسفة نراه يدافع عن وجود الفيلسـوف، وهو الدفاع الحيوي الذي ينسف به نظرية

موت المبدعين، ومثلما دعا إلى ابتكار المفاهيم وصنعها وإبداعها من دون أن تكون هناك سماء لها، نراه يدافع أيضاً عن «المبدع» بوصفه فيلسوفاً وهو الذي قال يوماً: «لن تكون المفاهيم أيّ شيء من دون أن تحمل توقيع مبدعيها»[٣]. كما أن المبدعين ليسوا مجرَّد موضوعات للتأمل والتفكير، وليسوا مجرَّد مؤلِّفين، إنما هم أفعال للفكر ساطعة، وكينونات مضيئة ولامعة ووامضة صهرتها الشدّة التي أنتجت اختلافها. إنهم، وبهذا المعنى، علامات.

يرى دولوز أن الفلسفة ما زالت صامدة بوجه من يروِّج لموتها، وصمود الفلسفة هذا يتطلَّب احتفاءها بالإبداع من خلال وظيفتها الإجرائية والمعرفية، كون الفلسفة هي بمثابة «الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم، في حين أن موضوعها هو إبداع مفاهيم دائمة الجدَّة

كان دولوز قد ميز بين دلالتين للمفهوم؛ الأولى يعتبرها ميتافيزيقية ينظر بها إلى المفهوم بوصفه «تجريداً عقلياً يحاول أن يحدِّد جُملة الصفات والنعوت الثابتة التي نحملها على مجموعة من الموجودات بغرض إدراكها وتوحيدها في هوية»[٤]. أما الدلالة الثانية فلا يتقدَّم فيها المفهوم بوصفه «وحدة بل يتقدَّم كتعدُّد؛ كسلسلة تنويعات ودرجات شدّة، ولذا لا يأتي المفهوم جواباً على سؤال الماهية، بل جوابٌ عن سؤال الكيف، والحيث، لأن المفهوم تجاور بين مكوِّنات، وليس توحيداً لمكوَّنات»[٥].

الفلسفة وغيرها

لقد أعاد دولوز الاعتبار لاستقلال الفلسفة كمعرفة قائمة برأسها في ظلّ هيمنة الفلسفات الجزئية التي ظهرت في القرن العشرين، ولكنه أكَّد، في الوقت نفسه، عدم انعزال الفلسفة عن فضاءات المعرفة المحيطة بها؛ فعندما «تستورد الفلسفة مفاهيم وإشكاليات ما، فلا يمكنها أن تتجنبها، بل تجد نفسها مجبرة على إعادة شحذها، وإعادة اشتغالها في خدمة مشكلاتها الخاصَّة بها، وإعادة إبداع مفاهيمها، وهي بذلك تبدعها لذاتها وبذاتها فقط»[٦]. ولذلك يعتقد دولوز بأنه «لا ينبغي البحث عمّا إذا كانت فكرة ما صائبة أو صحيحة، وإنما ينبغي البحث عن فكرة أخرى مغايرة، في مكان آخر، وفي مجال آخر، بحيث أن شيئاً ما يحدث بين الاثنين وهو غير موجود؛ لا في هذا، ولا في ذاك»[٧]. ولهذا نرى مؤلَّفات دولوز وقفت عند الكثير من الفلاسفة درساً وتحليلاً ومُلاقاة، ويكفي أن نلقي نظرة أولى وعابرة على عناوين مؤلَّفاته حتى نتيقن تلك المُلاقاة المبدعة.

إن ملفوظاً من قبيل «ما يحدث بين الاثنين»، وكما ورد في قول دولوز السابق، يمكن عدُّه مفتاحاً للعبور بين الفلسفة وبقية الحقول المعرفية، بين مفاهيم الفلسفة ومفاهيم الحقول المعرفية الأخرى، أو بالأحرى بين مفهومي «الاختلاف والتكرار»

و«العلامة» في فلسفة دولوز عندما نظر في «غير الموجود» بينهما، وعمل على جعله موجوداً، ألا وهو النَّظر في العلامات signes في ضوء فلسفة الاختلاف والتكرار أو العلامات في ضوء فلسفة الاختلاف والتكرار. ولكن ما هي رؤية دولوز في الاختلاف والتكرار؟

وضعنا دولوز، في تصديره لكتاب «الاختلاف والتكرار»، عند المشهد الفكري الذي سيعالجه في مؤلَّفه هذا قائلاً: «ينتمي الموضوع المعالج هنا بشكل واضح إلى عصرنا، ويمكن تبيُّن علاماته من خلال توجُّه مارتن هيدغر المتدرِّج في الحدَّة نحو فلسفة للاختلاف الأنطولوجي، وممارسة البنيوية المؤسَّسة على توزيع السِّمات التفاضلية في فضاء تعايش، وكذلك دوران فن الرواية المعاصر حول الاختلاف والتكرار، ليس في تفكُّره الأكثر تجريداً فحسب إنما في تقنياته الفعلية، واكتشاف قدرة تخصّ التكرار التي هي قدرة تكرار اللاوعي واللغة والفن. ويمكن أن توضع كل هذه العلامات لجهة هيجلية مضادَّة معمَّمة: حلّ الاختلاف والتكرار محلّ الـ«هو هو» المتطابق، والسلبي، والهويَّة والتناقض إلا بقدر ما يستمر إخضاعه للـ«هو هو». وتحدد أسبقية الهويَّة، في أية طريقة يجري تصورها، عالم التمثُّل أو التمثيل. غير أن الفكر الحديث ولد من إخفاق التمثُّل، كما من ضياع الهويات، ومن اكتشاف كل القوى التي تعمل تحت تمثُّل الـ«هو هو» المتطابق. إن العالم الحديث هو عالم المظاهر الخداعة simulacres، فلا تبقى هوية الذات الفاعلة مع هوية الجوهر، وليست كل الهويات سوى مصطنعة نتجت بوصفها «أثراً بصرياً» عن لعبة أعمق هي لعبة الاختلاف والتكرار. نريد أن نفكِّر الاختلاف في ذاته، وصلة المختلف بالمختلف، بشكل من أشكال التمثُّل التي تعيدهما إلى «عينه»، وتجعلهما يمران بالسلبي»[٨].

أعاد دولوز الاعتبار لاستقلال الفلسفة كمعرفة قائمة برأسها في ظلّ هيمنة الفلسفات الجزئية التي ظهرت في القرن العشرين، ولكنه أكَّد، في الوقت نفسه، عدم انعزال الفلسفة عن فضاءات المعرفة المحيطة بها؛ فعندما «تستورد الفلسفة مفاهيم وإشكاليات ما، فلا يمكنها أن تتجنبها، بل تجد نفسها مجبرة على إعادة شحذها، وإعادة اشتغالها في خدمة مشكلاتها الخاصَّة بها، وإعادة إبداع مفاهيمها، وهي بذلك تبدعها لذاتها وبذاتها فقط

واضح هنا أن دولوز يقف على النقيض من فكر فلهلم فردريك هيجل، يقف على النقيض من منطق التطابق والهويَّة، وكذلك يقف ضد فكر التمثيل أو التمثُّل representation، خصوصاً وأنه قال: «إن التمثُّل هو محلّ الوهم المتعالي»[٩]. وكذلك ضد فاعلية الجوهر المفارق أو الميتافيزيقي، ولعل الأهم في هذا النَّص هو اعتباره الهويَّة مظهراً خادعاً للعبة عميقة هي لعبة الاختلاف والتكرار.

ويتضح أيضاً أن خطاب دولوز الفلسفي لا يحتفل بالهويَّة والأصل أو المثال أو المعنى المجرَّد، فلا توجد هويات مسبقة أو قبلية يندرج بها الوجود ويتحقَّق على منوالها، إنما هناك فعل شدّة intensité يقبع في عمق الوجود هو الذي يوجِّه الهويَّة بوصفها مفعولاً وليست فاعلاً أو معلولاً وليست علة، فليست الهويَّة مجرَّد موقع، بل هي فعل وشغل داخلي يمضي وفق صيرورة وسيلان وأحداث داخلية تختلف فيما بينها في محاولة متوثبة لتوليد الفوارق، وهذا الفهم سينعكس تالياً على معنى العلامة وكينونتها لدى دولوز، فهذه لن تكون هوية جاهزة، إنما هي نتاج لعمل جنيني يتبدّى عبر الاختلاف كتكرار.

التكرار

تقوم فلسفة دولوز على دعامتين أو فعلين هما الاختلاف والتكرار، ويرتبط مفهوم العلامة بها أشد الارتباط، ولهذا نظر دولوز في مفهوم التكرار répétition نظرة نقدية، فهو لا يأخذ بالتكرار كما نراه يومياً؛ تكرار ظهور الشمس والقمر، تكرار ظهور الأيام، تكرار الأمراض، تكرار صور العمل، ولذلك رفض التكرار لـ«عينه» مثل تكرار حرف الجيم «ج ج ج ج»، ورفض التكرار المادي «برتقالة برتقالة برتقالة»، ورفض تكرار الموضوع «الموت الموت الموت»، وتكرار الذات، وتكرار النموذج، وتكرار التمثيل أو التمثُّل، والتكرار السلبي بغياب المفهوم، والتكرار الشرطي، والتكرار الساكن، والتكرار في المعلول، والتكرار العادي، والتكرار الأفقي، والتكرار المفصَّل والمفسَّر، والتكرار الدوراني، وتكرار المساواة واشتراك المقياس والتناظر، والتكرار الجامد، والتكرار العاري، وتكرار تماثل الحكم، وتكرار الهويَّة أو تكرار الـ«هو هو»، والتكرار الأمري، والتكرار التقريبي أو تكرار التماثل، والتكرار المفهومي أو التكرار بهوية المفهوم، وتكرار الذات الحقيقية، ورفضَ كذلك التكرار الأفلاطوني، والتكرار الأرسطوطاليسي، والتكرار الهيومي نسبة ديفيد هيوم، والتكرار الكانطي، والتكرار الهيجلي، وناقش التكرار لدى سورين كيركغارد، وفردريك نيتشه، وكذلك التكرار الهيدغري[١٠]، حتى وجد أن كل ذلك هو من نصيب التكرار لـ«عينه» الذي «لا يمتلك اختلافاً إلا مسحوباً أو منتزعاً»[١١].

مقابل ذلك، وجد دولوز رؤية أخرى للتكرار من دون أن يلزم نفسه بالبقاء في حدود أنطولوجية المفهوم أو مجرَّد الاختلاف كمفهوم الذي رفضه بعنف، إنما ذهب إلى التكرار بوصفه حدثاً كما لو كان – دولوز – باحثاً استقرائياً؛ فإذا كان التكرار ممكناً فهو «يخص المعجزة أكثر مما يخص القانون، هو ضد القانون، وضد الشكل المشابه والمضمون المعادل للقانون، فالتكرار

خطاب دولوز الفلسفي لا يحتفل بالهويَّة والأصل أو المثال أو المعنى المجرَّد، فلا توجد هويات مسبقة أو قبلية يندرج بها الوجود ويتحقَّق على منوالها

يعبِّر عن الفرادة ضد العام، وعن الكلية ضد الخاص، وعن البارز ضد العادي، وعن الفورية ضد التغير، وعن الأبدية ضد الدوام، ومن كل الأوجه أن التكرار هو الخرق transgression، لأنه يعيد النَّظر في القانون، ويندِّد بالطابع الاسمي أو العام لصالح واقع أعمق وأكثر فنية»[١٢].

إن البحث في الواقع الأعمق للتكرار قاد دولوز إلى تشخيص سمات عدة للتكرار يراها مناسبة؛ ففي الأساس، التكرار يضم الانتقال والتخفِّي، وهو إيجابي وبالإفراط، إنه تكرار للشموليات الداخلية المتغيرة، وهو أيضاً تكرار الدرجات والمستويات، ويوصف بأنه تكرار التعايش قانوناً، والدينامية، والاشتدادية، وهو، فضلاً عن ذلك، بارز ويعمل كتكرار للفردات، إنه عمودي، ومغلَّف، ومكسو بأقنعة، وأقنعته تلك وانتقالاته وتخفياته هي عناصره الأولى والأخيرة والوحيدة[١٣]، وبالمرة التكرار هو «تكرار المختلف الذي يضمُّ الاختلاف»[١٤].

في ضوء ذلك، لا يمثل تكرار ظهور الشمس يومياً تكراراً حقيقياً، إنما التكرار الحقيقي هو الاختلاف في ظهور الشمس اليومي المتكرِّر، فكل ظهور للشمس يومياً لا يعدو تكراراً ما لم يضمّ اختلافه، ولا نقول إن الشمس مختلفة هذه المرة إنما نقول التكرار المختلف للشمس. لأن التكرار هو موضوع الاختلاف والوجود إذ يكون ناتجاً عن تكرار حقيقي.

الاختلاف

إن مهمة الحياة، يقول دولوز، هي: «جعل التكرارات تتعايش في فضاء يتوزَّع فيه الاختلاف»[١٥]. وهنا تنجلي فكرة الاختلاف différence في فلسفة دولوز، فالاختلاف ليس اختلاف الأضداد، ولا اختلاف المتباينات؛ أحمر وأسود أو ليل ونهار، فهذه الاختلافات لا تنطوي على تكرار ما يجعلها ترتقي إلى مستوى العُمق الحقيقي. ولذلك يعتقد دولوز بأن من طباع الاختلاف إنما «يقطن في التكرار»[١٦]، ويعتقد أيضاً أن موضوع الاختلاف هو التكرار؛ التكرار الذي تجري رحاه في العُمق الغائر.

منذ غابر الأزمان كان الاختلاف اختلاف مفاهيم، هكذا كان الأمر من أرسطوطاليس حتى هيجل، فكانت صرخة هؤلاء أنها «خلطت مفهوم الاختلاف بمجرَّد اختلاف مفهومي، مكتفية بإدراج الاختلاف في المفهوم عموماً»[١٧]. وتلك كانت إشكالية دولوز. أما الإشكالية الأخرى فهي حيرة دولوز الذي راح يحفر، عندما نظر حوله ولم يجد تصوراً خاصاً بالاختلاف بوصفه «فرادة» لها اعتباراتها المغرية، يحفر في أعماق الخطاب الفلسفي بغية تشييد رؤيته الخاصَّة بفكرة الاختلاف بعيداً عن أية تضمينات مفهومية لا تجلي وجود الاختلاف الحقيقي بعيداً عن السقوط في إغواء

يعتقد دولوز بأن من طباع الاختلاف إنما «يقطن في التكرار»، ويعتقد أيضاً أن موضوع الاختلاف هو التكرار؛ التكرار الذي تجري رحاه في العُمق الغائر

ماهية التكرار.

لقد نظر دولوز في مفاهيم متواترة الحضور للاختلاف، مفاهيم متوارثة عن أرسطوطاليس وأتباعه؛ فنقض الاختلاف الكامل، والاختلاف الأعلى، والاختلاف النوعي، والاختلاف الدوني، واختلاف الأجناس، وصولاً إلى التجربة الحاسمة للاختلاف التي يبتغيها. ولكن، وإذا لم يكن الاختلاف هو اختلاف مفاهيم، فما هو منشأ الاختلاف؟

العُمق الاشتدادي

ينطلق دولوز من حقيقة أساسية مفادها أن «الاختلاف هو ما به المعْطى يُعطى»[١٨]، وكرَّر القول ذاته مرة أخرى قائلاً: «الاختلاف ليس هو المعْطى ذاته، ولكن ما به المعْطى يُعطى»[١٩]. ومن جانب آخر، يؤكِّد دولوز بأن «الاختلاف ليس هو الظاهرة phenomenon، إنما هو النومين Noumène الأقرب إلى الظاهرة»[٢٠]. وهذا يعني أن «النومين» هو مكمن الاختلاف؛ مكمنه الداخل والعميق والغائر الذي به تُعطى الظاهرة اختلافها. وأن عبارة «ما به» تبدو أساسية لأنها تأخذنا دائماً إلى مكمن الاختلاف؛ إلى مصدره، إلى فاعليته الدسمة، فما به يتقوَّم الوجود داخل النومين إنما هو الشدّة intensité، والشدّة فاعلية تعمل في الخفاء كان دولوز قد نظر فيها بداية في الصفحة ١٣٢ من كتابه «الاختلاف والتكرار» عندما تطرَّق إلى مفهوم «العُمق الاشتدادي»، لكنه نظر فيها أيضاً، وعلى نحو مفصَّل، في «الفصل الخامس» من كتابه ذاته الذي جاء تحت عنوان «التوليف اللامتناظر للحسي».

كثيراً ما لجأ دولوز إلى النَّظريات العلمية الحديثة؛ نظريات في الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا، وفي الهندسة، والبيولوجيا، والرياضيات الخاصَّة بحساب التفاضل والتكامل، وغيرها من النظريات، وهذا ما انعكس على رسم معالم رؤيته الفلسفية

يعتقد دولوز أن «الشدّة هي تفاضلية»، كما أنها «اختلاف في ذاته»[٢١]، كما أن «المباينة هي الاختلاف أو الشدّة التي هي السبب الكافي للظاهرة، وشرط ما يظهر»[٢٢]. وتبدو هنا العلاقة واضحة بين الظاهرة والشدّة، فكل ظاهرة هي نتاج لفاعلية الشدّة؛ فاعليتها في الداخل العميق الذي تجري رحاه، وبحسب دولوز، على وفق ثلاث خصائص أو سمات إيجابية للعمق بما هو حيّز اشتدادي[٢٣]، هي:

الأولى: يضمُّ الكم الاشتداديُّ اللامتساوي، ويمثل الاختلاف في الكم ما هو غير قابل للإلغاء الذي نجده في اختلاف الكم، وغير القابل للتساوي الذي من جنس الكم عينه. هو إذن الكيف الخاص بالكم.

الثانية: تؤكِّد الشدّة الاختلاف؛ إذ لما كانت تضمُّ اللامتساوي في ذاته، لأنها سبق وكانت اختلافاً في ذاته، وتجعل من الاختلاف موضوع تأكيد.

الثالثة: تلخِّص الاثنين معاً، فالشدّة هي كمٌ مضمَّن ومغلَّف وجنيني، وليست مضمَّنة في الكيف. الشدّة،

بداية، هي مضمَّنة في ذاتها، مضمِّنة ومضمَّنة. في الشّدة نسمي اختلافاً ما هو واقعي مضمِّن، مغلِّف، نسمي مسافة ما هو في الواقع مضمَّناً مغلَّفاً. ولهذا ليست الشدّة قابلة للقسمة كما هي حال الكم الامتدادي، ولا هي منقسمة كما هو حال الكيف.

الشدّة إذاً، هي الاختلاف في ذاته لأنها «تعبِّر عن صلات تفاضلية، ونقاط بارزة مقابلة، وتُدخل، في هذه الصلات وبين المثُل، نمطاً جديداً من التمييز»[٢٤]. وبذلك يمكن اعتبارها «المبدأ المتعالي الذي يعبِّر عن الاختلاف المحض الذي هو النسيج العميق للوجود، أي أنها الكل الأصلي، وحقل القوى والانفعالات، ومنبع الحدوس والأحاسيس في كل مستوياتها؛ هي علة تحقق الأشياء والتجارب والأعيان، ومصدر تشكُّل العالم وتمثيلاته. ولهذا، ليست الشدّة شيئاً آخر غير نظام الاختلاف، فهي اختلاف مطلق، ولهذا فإن عبارة اختلاف الشدّة أو الشدّة كاختلاف أو اختلاف شديد هي عبارة عن تحصيل حاصل لأن الشّدة ما هي إلا الاسم الآخر للاختلاف، ولفعل توليد الفوارق، أي أن كل شدّة هي أصلاً مزاوجة. وبهذا الاعتبار لا يمكن أن نتمثَّل ماهية الشدّة بمفاهيم الكم والكيف الامتداديين لأنهما أصلاً مفعولان لها؛ إذ هي منبع الكيف والمحسوس»[٢٥].

تلعب الشدّة وتمرح وتمارس حريتها في العُمق أو في العُمق الأصلي originelle أو العُمق الاشتدادي intensive الذي يصفه دولوز بأنه «رحم المكان بأكمله، والتأكيد الأول للاختلاف؛ فيه يعيش [الاختلاف] ويغلي في حالة اختلافات طليقة، مما لن يظهر إلا لاحقاً كحصر خطي، وتعارض مسطَّح»[٢٦]. وبالإضافة إلى ذلك، يفترض دولوز أساساً زائفاً للمعركة التي تجري في العُمق، ولكنه يؤكِّد أيضاً على وجود «ما تحت المعركة» تلك، بل يؤكِّد على وجود «فضاء لعب الاختلافات»[٢٧]. فكيف يظهر العُمق إلى السطح ليكون ويوجد؟

في الواقع، كثيراً ما لجأ دولوز إلى النَّظريات العلمية الحديثة؛ نظريات في الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا، وفي الهندسة، والبيولوجيا، والرياضيات الخاصَّة بحساب التفاضل والتكامل،

فمن المعروف أن دولوز نقض فكرة التمثيل أو التمثُّل كأحد وسائل تحصيل المعرفة لأن التمثيل يتعامل مع الأشياء كموضوعات، وأحلَّ، بدلاً من ذلك، نظريته في مُلاقاة الأشياء التي هي طريقته الذهبية في تحصيل المعرفة. والمُلاقاة هي فعل تلقائي غير إرادي لا يقصد الأشياء بناء على دافعية الذات القصديَّة intentional، فهذه الفكرة تتضاد مع قصديَّة إدموند هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) التي تدفع الإنسان إلى التعامل مع الأشياء والظواهر والماهيات بروح من القصد والتوجُّه الغائي، بينما يرى دولوز هو العكس، أيْ من خلال مُلاقاة تتعاضد قدرة الطبيعة والعقل معاً على بناءها

وغيرها من النظريات، وهذا ما انعكس على رسم معالم رؤيته الفلسفية، فهو يعتقد بوجود ثلاثة أبعاد تبدأ من العُمق الاشتدادي صوب السطح المتعايش أو المسطحات المتعايشة. ففي العُمق يعمل الاشتداد وفق ازدحام الاختلافات، بل تفاقم «تعدُّدية الاختلافات الحرة والمتوحِّشة أو غير المكبوحة»[٢٨]، ليعيش «تجربته الحاسمة»[٢٩] التي تفترض داخلياً وجود «مكان وزمان تفاضليين وأصليين حصرياً، ويستمران من خلال أشكال تبسيط الحد الأقصى أو التعارض حتى ترتسم تعارضات القوى أو حصر الأشكال»[٣٠]. في ذلك العُمق يوجد «عنصر واقعي أعمق يُعرَّف، ويُعيّن ككثرة لا شكلية بالقوة»[٣١]. وتوجد فيه أيضاً «تعارضات في وسط دقيق من المنظورات المتراكبة، والمسافات، والتباعدات، والتباينات الموصلة في كثرة، والكثافات اللامتجانسة، ويوجد كذلك ما هو بالقوة، ويجري ذلك بتوزيع التباينات في كثرة ما»[٣٢]. وكل ذلك يمثل البُعد الأول ذاك الذي يجري صخبه في العُمق الاشتدادي.

وكان دولوز قد استعار مثالاً على ذلك من جوتفريد ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) الذي تصوَّر مجموعة من السفن التي حملها تيار مائي ما على أن تتصادم على مسطح الماء، وكانت نتيجة الصدمات «قيمة حصر وتساو»[٣٣]، بل وتعارضات بين السفن وأشلائها على مسطح الماء

تبدو الأشياء من حولنا علامات محمَّلة بالعنف البريء، العنف ليس من أجل أذى البشر، العنف الذي يداهمنا في كل لحظة، وفي كل مناسبة لتفتح علينا ممارسة مهمتنا التي تكمن في مُلاقاة العلامات

ذاته وهو ما يمثل البُعد الثاني، بُعد التعارضات بما هو «نشر الأشياء في مكان مسطَّح، بما هو استقطاب متخزَل وحيد، ويحصل التوليف هو نفسه في أساس زائف فقط، أي في بُعد ثالث خيالي يُضاف إلى الأبعاد الأخرى، ويكتفي بجعل المسطَّح ينشطر»[٣٤]. فهناك تباينات تجري في العُمق ينشأ عن صخبها مسطَّحات متعايشة ومتحرِّكة. ما يعني أن ما يجري في العُمق من صخب إنما يجري في أساس صاخب من المعركة، وتحته تجري لعبة الاختلافات الحرة والمطلقة، وكل ذلك يمثِّل صورة سلبية للاختلاف، فما يطفو على السطح ناتج عن صخب الاختلافات الداخلي، أو لنقل هو ناتج عن اختلاف الشدّة.

العلامة والإشارة

قد يكون المثال الذي مرَّ غامضاً بغموض معالجات دولوز الفلسفية، لكنه من الممكن أن يصبح مدخلاً إلى عالم العلامات؛ فمثلما قال دولوز إن «النومين» هو أساس «الظاهرة»، وإنه أقرب إلى «الظاهرة» فإنه إنما يضعنا عند «نومين» هو الداخل و«الظاهرة» هي الكل الخارج المرئي لنا. ولذلك يعتبر دولوز «الظاهرة علامة»[٣٥]، ومن ذي قبل كان قد ميَّز بين الإشارة signal والعلامة signe، وعلى النحو الآتي:

أولاً: الإشارة: هي «النسق الذي يتمتَّع بعناصر عدم التناظر، ويمتلك أنظمة متباينة المقدار»[٣٦].

ثانياً: العلامة: هي: «كل ما يجري في نسق كهذا، ما يُومض que clignote في الفترة الفاصلة كما التواصل الذي يقام بين المتباينات». كما أن العلامة بالضبط هي «أثر effet، ولكنه الأثر الذي يمتلك مظهرين؛ الواحد الذي به، بما هو علامة، يعبِّر عن عدم التناظر والمنتج، والآخر الذي به يميل إلى إلغائه». كما أن العلامة «ليست نظام الرمز تماماً، مع ذلك تحضره بتضمُّن الاختلاف الداخلي، غير أنها أيضاً تترك في الخارج شروط إعادة إنتاجه»[٣٧].

تبدو العلاقة بين الإشارة والعلامة واضحة؛ فلو نظرنا إلى السماء ليلاً سنرى مجموعة نجمات متفاوتة ومتباينة ومختلفة وموزعة على نحو غير متناظر من حيث المسافة والبُعد والاقتراب والحجم، فهي متباينة في كل شيء، لكنها، ومع ذلك، تظهر في نسق système هو نسق ظهورها غير العلاماتي. ولا شك أن النجمات هن ظواهر ناتجة عن اختلاف الشدّة، لكنها ما أن توضع في نسق الكون أو السماء المعتمة يمكن قراءتها من منظور علاماتي. فلو دققنا النَّظر أكثر في نسق التواصل فيما بينها بوصفها نجمات متباينة الشكل والضوء والحركة والمسافة لوجدنا قيمة جديدة، فكل نجمة تدخل في علاقة تواصلية مع غيرها، وكل التباينات والفجوات فيما بينها وغيرها سيمثّل ظاهرة أو علامة، وما يُومض في كليَّة النسق ينتج عنه علامة، لأن ما يُومض لا يمثل تكراراً لهوية معينة هي هوية النجمات، إنما هو تكرار للعلاقات فيما بينها الذي يتجسدَّ كاختلاف، فالنجمات لا تظهر كتكرار إنما كاختلاف يجعل الظاهرة علامة ناتجة عن تكرار اختلاف.

ويأتي دولوز على نموذج آخر يوضح فيه مفهوم التكرار، لكنه نموذج مرئي، يقول في هذا الصدد: «لنأخذ تكرار نموذج الزخرفة، إذ نجد رسماً معاداً منسوخاً بحسب مفهوم الهويَّة متطابق تماماً، ولكن في الواقع لا يسلك الفنان بهذه الطريقة، فلا ينضِّد نُسخاً من الرسم، إنما يخلط في كل مرَّة عنصر نسخة بعنصر آخر من نسخة لاحقة، فُيدخل في السياق الدينامي للبناء عدم توازن، وعدم استقرار، وعدم تناظر، وضرباً من الفغر التي لن تتناسق جميعها إلا في الأثر الشمولي»[٣٨]. وهذا يعني أن تكرار الرسام أو الناسخ للزخرف هو تكرار اختلاف وليس تكرار هوية المنسوخ بذاته. هذا ما يقوله دولوز بالضد من نسق تكرار الزخرف بذاته كما لو كان نسخ هوية مكرر أو هو = هو. ما يعني أن الزخرف هو علامة إذا ما نُظر إليه بوصفه تكراراً للاختلاف، فكل زخرف هو تكرار مختلف.

لقد جرَّب دولوز التلاقي حتى في كتاباته وهو يتلاقى مع عدد من الفلاسفة بوصفهم حالات إبداعية أو حالات شدّة إبداعية أو علامات تُومض إبداعاً كان عليه أن يلاقيها بطيب خاطر

بقي من المهم التذكير أن العلامة لدى دولوز ليست

هـي الرمز symbol؛ فالعلامات «ليسـت رموزاً من حيث إن الرموز ليسـت سـوى دلالات لسـانية مـن درجة ثانية تتحـرر من أولويـة الوعي والـذات والثبات» كمـا يؤكِّد دولوز ذلك[٣٩].

مُلاقاة العلامة

تبـدو العلامات بالنسـبة لنـا ظواهر متجانسـة، هكذا نراهـا عندمـا نلاقيهـا، ومـا يُومـض بوصفـه ظاهـرة أو علامـة هو أثر، ولهذا «الأثر – العلامة» مظهران أحدهما التجانـس أو عـدم التناظـر، والآخر هـو قدرته على إلغاء كينونتـه. ومـع ذلـك يـرى دولـوز أن العلامـات تضـم اللاتجانـس أيضـاً، وهـو ما يتبـدّى في كينونـة العلامات عبْر ثلاث طرق؛ «الأولى تضمّ اللاتجانس في الموضوع الذي يحملها أو الذي يراسلها، ويقدم بالضرورة اختلافاً فـي المسـتوى بوصفهما نظامين من المقـدار أو متباينين تومـض بينهمـا العلامـة. والثانيـة تضـمّ اللاتجانـس عندمـا تغلِّـف العلامة في ذاتها موضوعـاً آخر في حدود الموضـوع الحامل، وتجسِّـد قـدرة الطبيعـة أو الروح = أمثـول Idée. أمـا الثالث فتضـمّ العلامة فيـه اللاتجانس فـي الإجابـة التي تلتمسـها حركةُ الإجابة، فإنها لا تشـبه حركة العلامة، ولا تشـبه حركة الشَّـخص السابح حركة الموجة، وبالضبط ليسـت شـيئاً حركات معلِّم السـباحة التي نعيدها على الرمل بالنسبة إلى حركات الموجة التي لا نتعلَّم تجنبها إلا بفهمها عملياً كعلامات»[٤٠].

لعل الطريق الثالث يضعنا عن مسألة في غاية الأهمية تلك هي مسـالة تلقّي الإنسـان للعلامات أو كيفية تعامل الإنسـان مع العلامات، فمن المعـروف أن دولوز نقض فكـرة التمثيـل أو التمثُّل كأحد وسـائل تحصيل المعرفة لأن التمثيـل يتعامل مع الأشـياء كموضوعـات، وأحلَّ، بدلاً من ذلك، نظريته في مُلاقاة الأشـياء التي هي طريقته الذهبيـة في تحصيل المعرفـة. والمُلاقاة هي فعل تلقائي غيـر إرادي لا يقصـد الأشـياء بنـاء علـى دافعيـة الذات القصديَّـة intentional، فهـذه الفكـرة تتضـاد مـع قصديَّـة إدمونـد هوسـرل (١٨٥٩–١٩٣٨) التـي تدفع الإنسـان إلـى التعامـل مـع الأشـياء والظواهـر والماهيات بروح من القصد والتوجُّه الغائي، بينما يرى دولوز هو العكس، أيْ مـن خلال مُلاقـاة تتعاضد قدرة الطبيعـة والعقل معاً على بناءها.

يفهم دولوز العلامة ضمن بناء مفهومي غير جاهز؛ يفهمها ضمن التكرار والاختلاف مثلما فهمها مارتن هيدغر (١٨٨٩–١٩٧٦) ضمن مفهوم الكينونة والدّازاين والوجود

إن التلاقـي مـع العلامـات تشـطر العلم إلـى «تعلُّم» و«معرفة»، والتعلُّم بحسب منظور دولوز هو «الاسم الذي يلائم الأفعال الذاتية التي تتحقَّق في مواجهة موضوعانية المشـكلة، فـي حين أن المعرفة تشـير فقط إلـى عمومية المفهـوم أو إلى الامتـلاك الهادئ لقاعـدة الحلول»[٤١]. ولهذا يرى دولوز أننا يجب «أن نأخذ الشـروط المتعالية للفكـر من التعلُّـم وليس مـن المعرفة»[٤٢]، فـي محاولة منه لإعلاء شـأن المُلاقـاة بوصفها تعلُّماً وليـس تعليماً؛

بوصفها فعلاً وليس تفكيراً فحسب. كما أنه يعتبر «المشكلات ورمزياتها تتصل بالعلامات التي تتوسَّع في حقل رمزي»[٤٣] ما. وإلى جانب ذلك، يولي دولوز «الثقافة» أهمية كبيرة في المعرفة كمُلاقاة؛ فالثقافة هي «حركة التعلُّم، ومغامرة اللاإرادي الجارّة وراءها الحساسية والذاكرة، ثم الفكر، مع كل العنف والقسوة الضروريين»[٤٤]. والإدراك يتحقَّق، وبحسب هذا الفهم، «عندما يدفع المتعلِّم مَلكاته إلى الفعل بأقصى درجات إمكانها؛ فالملكات يصعد بعضها نحو بعض على نحو تنافري يضطر معه الفكر إلى الخروج عن حدود التجريبي فيه ليبلغ البنى المتعالية»[٤٥].

يتضح من هذه التخريجات أن دولوز لا تفوته فكرة الشدّة أو توتر الموضوعات أو الظواهر بوصفها علامات، فالعلامات لديه «هي صورة ما نلاقيه، وما يجبرنا على التفكير؛ إنها الإشكال حين يلاقي مَلكاتنا في الخارج بمفعول الحظ. والعلامات أيضاً هي أشياء الواقع مُقدَّمة إلى الوعي في تضادّها وتنافرها المطلق، أي أنها مقدَّمة خارج كل أطر التمثيل والتعرُّف التي تزودنا بها صورة الفكر الوثوقية أو الدغمائية، إنها العالم في ذاته وبذاته في استقلال عنّا، ولهذا، فهي علَّة وعينا وفكرنا نفسه، فمُلاقاة العلامات هي ما يُفعِّل الفكر ويدفعه إلى إنتاج المفاهيم»[٤٦].

تبدو الأشياء من حولنا علامات محمَّلة بالعنف البريء، العنف ليس من أجل أذى البشر، العنف الذي يداهمنا في كل لحظة، وفي كل مناسبة لتفتح علينا ممارسة مهمتنا التي تكمن في مُلاقاة العلامات، وتعلُّم ما تريد قوله من خلال التواصل والتثاقف معها بوصفها حدثاً مركَّباً من عناصر متجانسة وغير متجانسة وإن لم يبدُ عليها ما يجري في داخلها. العلامات هي الاختلاف الذي يلمع بنار الشدّة التي تعتمل في داخله بسبب شق طريقه بين لا متناظرات، وتحركه نحونا قصد ملاقاتنا رغم احتراقه الداخلي بين أن يكون أو لا يكون. كما أن العلامات تمضي نحونا لتلاقينا بوصفها حدثاً أو حتى شظية حدث، وطرف شدّة حر في حركته نحونا وغيرنا وما علينا سوى قنص صيرورته وهو الذي لا يمل من تكريس اختلافه أمامنا.

ولذلك، يعتقد دولوز بأن «قدرات القفزات أو الفترة الفاصلة أو الاشتدادي أو اللحظة التي لا تردم الاختلاف إلا باختلاف هي حاملة العلامات، وهذا هو الأهم؛ فمن الحساسية إلى المخيِّلة، ومن المخيِّلة إلى الذاكرة، ومن الذاكرة إلى الفكر، عندما توصل كلّ مَلكة منفصلة إلى الأخرى العنف الذي يحملها إلى حدها الأقصى الخاص بها، في كل مرة توقظ صورة حرة للاختلاف الذي يوقظ الملكة؛ يوقظها بوصفه مختلف هذا الاختلاف»[٤٧]، فلا يمكن «إنتاج اتفاق الملكات إلا كاتفاق شقاقي، لأن كل مَلكة لا توصل إلى الأخرى إلا العنف الذي يضعها أمام اختلافها وتباعدها عن الملكات الباقية»[٤٨].

وبعد أقل من عشر سنوات تقريباً على صدور كتابه العمدة «الاختلاف والتكرار»، لخّصَتْ كلير بارني منظومة أفكار التلاقي والتعلُّم بخمس فقرات، هي: ١. أفكار لن تصدر عن الطبيعة الحسنة والإرادة الحسنة، وإنما ستترتَّب عن عنف تلقّاه الفكر. ٢. أفكار لن تمارس

داخـل توافق بين الملكات، وإنما سـتحمل بالعكس كل مَلكـة إلى أقصى حـدود لا توافقها مع مَلكات أخرى. ٣ . أفـكار لن تنغلق في التعرُّف، وإنما تنفتح على لقاءات، وتتحـدَّد دائمـاً في علاقة بالخـارج. ٤ . أفكار لن تضطر إلـى الصـراع ضد الخطـأ، وإنما إلى الانفـلات من عدو أكثـر حميميـة، وأكثر قوة من الخطأ. ٥ . أفكار سـتتحدَّد فـي حركـة التعلُّم وليس فـي نتيجـة المعرفة، أفـكار لن تترك لأي شـخص، ولا لأي سـلطة إمكانية طرح أسـئلة أو تقديم مشاكل»[٤٩].

وفـي الواقـع تعـدُّ مؤلَّفـات دولـوز، خصوصـاً تلك التـي كتبهـا عن بعض الفلاسـفة، نموذجـاً للتلاقي الحرّ والتعلُّـم، وليـس للمعرفـة فقـط، كمـا لـو كان كلّ منهم علامـة تلاقي أخرى؛ كتبـت كلير بارنـي تخاطبه: «حتى بالنسـبة للمؤلِّفين الذيـن كتبتَ عنهم، سـواء تعلَّق الأمر بهيوم أو سـبينوزا، أو نيتشه، أو بروسـت أو فوكو، فإنك لم تكـن تتناولهم كمؤلِّفيـن، أي كموضوعات للتعرُّف؛ إنـك كنـتَ تجد فيهم أفعـالاً للفكر بدون صـورة، أفعال جامعة وسـاطعة في آن واحد، تجـد فيهم ذلك الصنف، وتلـك الالتقـاءات والقرانات التي تجعـل منهم مبدعين قبـل أن يكونـوا مؤلِّفيـن، كنـتَ تحـاول جرّهـم نحوك، لكنهـم لـم يكونوا يسـمحون بذلـك أبـداً. كنـتَ تلتقي فقـط بأولئك الذين لـم ينتظروك لتحقيق لقـاءات داخل أنفسـهم، لـم تجـد المبدعيـن سـوى أولئـك الذيـن لم ينتظروا مجيئك»[٥٠].

لقـد جـرَّب دولـوز التلاقـي حتـى فـي كتاباتـه وهو يتلاقـى مع عدد من الفلاسـفة بوصفهم حـالات إبداعية أو حـالات شـدّة إبداعية أو علامات تُومـض إبداعاً كان عليه أن يلاقيها بطيـب خاطر. وإذا كان هذا مجرّد تأويل قـد لا يجانـب الصـواب، فـإن دولـوز راق لـه تصنيـف العلامات رغم أنه سيعتقد بأن كل ما يُومض عن اختلاف شـدّة أو شـدّة اختلاف يعدُّ علامة، دولـوز الذي مرَّ على الإيماءات الجسـديَّة كعلامات، وعلى الأعشاب الوافرة بيـن الصخور كعلامـات، والزمرد والزخـرف بوصفهما علامتين، وعلى حطام السـفن المنتشـرة على المسـطَّح المائـي بوصفـه علامـات، وغيـر ذلـك ممـا وردت في فصول كتابه. إلا أن كل ذلك سيجد تكثفاً له عندما يقسِّم دولوز العلامات إلى علامات طبيعية وأخرى اصطناعية، وهو التقسـيم الذي يرتبط بالزمن والذي من شـأنه جعل نظرية دولوز في العلامات ذات أهمية سيميائية بالغة، بل جعله سـيميائياً بامتياز وهو الذي نظر في عمق العلامات أو فـي جوانيتها الاشـتدادية، وتابع تجليات كل ذلك في المسطحات المتعايشة كما أسلفنا القول.

لقـد أولـى دولـوز «الحاضـر» أهميـة زمانيـة كبرى، ولذلـك يعتقـد، وهـو يسـتند إلى مـوروث رواقـيّ نوعاً مـا، بـأن «إحدى عظائم المدرسـة الرواقية أنهـا بيَّنت أن كل علامـة كانت علامـة حاضر من وجهة نظـر التوليف المتلقِّـي، حيـث إن الماضـي والمسـتقبل ليسـا بالضبط سوى بُعدي الحاضر ذاته؛ فالندبة cicatrice هي العلامة، وليسـت علامة الجـرح الماضي، إنمـا الواقعة الحاضرة بأن يكون قد حصل جرح، لنقل إنها تأمُّل الجرح، وتدغم كل اللحظات التي تفصلني عنها في حاضر حي»[٥١].

العلامة إذاً هي «واقعة حاضـرة fait présent»، واقعة

ذات حضور إدغامي (إدغام = contraction)، ولذلك يُعرِّف دولوز العلامات بأنها «إدغامات يحيل بعضها على بعض»[٥٢]. ومنبت الإدغام هنا يتعلَّق بالزمان؛ فالعلامات تدغم زمانيتها أو زمانية واقعتها من دون أن تلغيها، فالندبة التي يعود تاريخها، ربما إلى طفولة الشَّخص صاحب الندبة، هي ما زالت موجودة، وما زلنا ننظر إليها في زمانيتها الراهنة. وكذلك يتعلَّق الإدغام بالمكان؛ فالندبة بدأت جُرحاً وتطوَّرت إلى علامة حطَّت رحالها في هيئة مستقرة. وعلى أي حال، يقسِّم دولوز العلامات إلى علامات طبيعية هي بنت الحاضر، وعلامات أخرى اصطناعية هي بنت الماضي، ويعرِّفهما على النحو الآتي:

أولاً: العلامات الطبيعية naturel، وهي علامات الحاضر التي تحيل إلى الحاضر فيما تدلُّ عليه، وهي علامات مؤسَّسة على التوليف المتلقَّي.

ثانياً: العلامات الاصطناعية artificiel، وهي التي تحيل إلى ماض أو إلى المستقبل كما إلى أبعاد متميزة للحاضر، والتي ربما يتعلَّق حاضرها بدوره بها، وتتضمَّن توليفات نشيطة، أيْ الانتقال من المخيِّلة العفوية إلى الملكات النشيطة للتمثُّل المتفكِّر، والذاكرة، والذكاء[٥٣].

وإذا كان دولوز قد أمعن النَّظر في أفكار تشارلز بيرس السِّيميائية، بل ودراستها في كتابه (الصورة – الحركة أو فلسفة الصورة)[٥٤]، فإنه لم يمعن النَّظر كثيراً في العلامات بوصفها نسيجاً لغوياً، ومع ذلك نراه في كتابه (الهضاب الألف) يتطرَّق إلى علاقة العلامات باللغة وهو يناقش المسلَّمات في اللغات، ونراه يؤكِّد على أن اللغة، كما هي الأشياء، تتكوَّن من جملة علامات، وهي «كل متخالف متعدِّد يتحقَّق في بساط بحث مباييني؛ لا ثنائيات تحكمه، ولا سببية أو تبعية تسكنه، بل كل ما يعمره هو أشياء تتقدَّم كعلامات محتاجة دائماً إلى تأويل متجدِّد، لأن اللغة ليست صورة عن الأشياء، بل هي قائمة مع الأشياء، وبالتالي فالتعبير لا يكون عن الأشياء، بل عن تركيب وحالة لعلاقة الأشياء مع المضامين»[٥٥].

لا تبدو سيمياء دولوز في العلامات «معرفة» بقدر ما هي «ثقافة» يتعرَّف إليها الإنسان من خلال علاقته بالأشياء من حوله عندما لا ينظر، وهو يتجوَّل في مزرعة ما، إلى الصخور إنما إلى الأعشاب فيما بين الصخور

ويبدو واضحاً هنا أن دولوز ينأى عن التمثيل أو تكريس علاقة ما للتمثيل بين الأشياء واللغة، لا سيما وأنه لا يقارب بين العلامة والدال، فالعلامة ليست دالاً signifiant، خصوصاً بعد أن أكَّد، في أثناء قراءته لميشيل فوكو، على عدم اعتبار «المضمون مدلولاً ومماثلته به، ولا اعتبار التعبير دالاً ومماثلته به»[٥٦]، فاللغة «تنظِّم كل نسقها كتكرار مكسوّ في ضوء قدرتها الأكثر إيجابية»[٥٧] وليست «ثنائية للموضوع والمحمول»[٥٨].

الخلاصة

وهو يبني رؤيته في العلامات، خرج جيل دولوز من عباءة الفلاسفة الذين دخل معهم في علاقة مُلاقاة إبداعية منتجة إلى فضاء سيميائي سعى إلى بنائه من خلال منظومة تفسيرية تنطلق من الاختلاف والتكرار. يفهم دولوز العلامة ضمن بناء مفهومي غير جاهز؛ يفهمها ضمن التكرار والاختلاف مثلما فهمها مارتن هيدغر (١٨٨٩-١٩٧٦) ضمن مفهوم الكينونة والدّازاين والوجود. ويفهمها أيضاً في ضوء حركة المُلاقاة التي تبدو طريقته في التعرُّف إلى العلامات وليس معرفتها كما لو كانت «ظاهرة» تطلب منا أن نذهب إليها لنعرف ماهيتها على طريقة إدموند هوسرل.

لقد وضعت فكرة المُلاقاة جيل دولوز عند عتبة السيمياء كفعل وحركة وصيرورة من غير أيّ وسائط على طريقة فردناند دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣)، فلا اللغة، ولا التمثيل كوسيط للمعرفة، ولا ثنائية الدال والمدلول كفيلة بمُلاقاة العلامات التي هي الشَّدة وقد تألَّقت وأومضت في عالم المُلاقاة. ولذلك، لا تبدو سيمياء دولوز في العلامات «معرفة» بقدر ما هي «ثقافة» يتعرَّف إليها الإنسان من خلال علاقته بالأشياء من حوله عندما لا ينظر، وهو يتجوَّل في مزرعة ما، إلى الصخور إنما إلى الأعشاب فيما بين الصخور، ينظر إلى تلك الفراغات الموجودة في زخرف ما تتناظر أشكاله على نحو متكرِّر وهو يكرس الاختلاف.

لقد غامر دولوز في عالم السيمياء عندما نزل إلى سوق العلامات من خلال دراسة سردية «البحث عن الزمن المفقود/ ١٩١٣ - ١٩٢٧»، رائعة مارسيل بروست الكاتب الفرنسي (١٨٧١-١٩٢٢)، لما فيها من تضمينات سيميائية هائلة، وهي الدراسة التي كانت تمهيداً لبناء رؤاه الفلسفية في العلامات كما تبدَّت تالياً في كتابه «الاختلاف والتكرار»، لكنه عاد بعد ذلك إلى مجالات سيمائية أخرى من خلال أبحاثه في الصورة والحركة[٥٩] بالانطلاق من قراءاته لأبحاث تشارلز بيرس في هذا المجال من جهة، وما نضده في كتابه «الاختلاف والتكرار» من جهة أخرى.

إن فصل دولوز بين الإشارة والعلامة مرة، وبين العلامات الطبيعية والعلامات الاصطناعية مرة أخرى، ومن ثم جعل العلامة كينونة وجود تنبثق عبر صيرورة دافقة من الشدَّة الداخلية، ووفق مُلاقاة مستمرة، إنما يضعنا عند فضاء سيميائي مختلف، فضاء يحتل منزلة فلسفية رائقة مقارنة بأقرانها تلك شيدها فلاسفة القرن العشرين بروح مغامرة مجدية.

الهوامش

* الدكتور رسول محمد رسول مفكر عراقي (دكتوراه في الفلسفة الألمانية)، عمل في عدد من الجامعات ومراكز البحوث في الخليج العربي، يعمل حالياً مستشاراً ثقافياً في هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة. وله عدد من المؤلفات في الفلسفة الألمانية، وفي العلاقة بين الغرب والإسلام، ودراسات في الهوية، إلى جانب عدد من المؤلفات التي تناولت الإسلام السياسي والفكر الإصلاحي في العراق، عني مؤخراً بالدراسات السيميائية فقرأ من خلالها عدد من النصوص الروائية الخليجية والعربية. من كتبه العلامة والتواصل (٢٠١١)، صورة المثقف في التراث العربي (٢٠١١)، نقد العقل التدميري (٢٠٠٩)، نقد العقل الإصلاحي: قراءات في جدلية الفكر العراقي الحديث (٢٠٠٨)، الوهابيون والعراق (٢٠٠٥)، الحضور والتمركز: قراءة في العقل الميتافيزيقي الحديث (٢٠٠٠)، الغرب والإسلام: قراءات في رؤى ما بعد الاستشراق (٢٠٠١).

١ جيل دولوز: بروست والإشارات، ترجمة: حسين عجة، دار نشر أدب فن والمنتدى الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٨. لا نميل إلى الإبقاء على ترجمة العنوان بـ (بروست والإشارات)، بل نفضل ترجمته فيه الدراسة إلى (بروست والعلامات)، لأن دولوز يميز بين الإشارة (Signal) والعلامة (Signe) كما سيرد ذلك في كتابه العمدة (الكتابة والاختلاف). انظر: (جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ترجمة: د. وفاء شعبان، ص ٧٨، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩).

- Deleuze (Gilles); Proust et les signes (1964, 2nd exp. Ed. 1976). Trans. Proust and Signs (1973, 2nd exp. ed. 2000).

خصَّص دولوز الباب الأول من كتابه هذا لدراسة أنظمة العلامات في سرديات مارسيل بروست.

- Deleuze (Gilles); Différence et Répétition, Epiméthée, Puf, Paris, 1968.

٢ جيل دولوز وفليكس غتّاري: ما هي الفلسفة؟ ترجمة: د. مطاع صفدي وفريق من مركز الإنماء القومي، مركز الإنماء القومي، ص ٣٠، بيروت – باريس، ١٩٨٧.

٣ جيل دولوز وفليكس غتّاري: المصدر نفسه، ص ٣٠.

٤ عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، ص ١٤٧، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٢. في الحقيقة لم ينظر دولوز إلى «المؤلفين» إلا بوصفهم «مبدعين»، ونجد في هذا الصدد توضيحاً لافتاً للنَّظر ورد في كتابه وزميلته أو محاورته كلير بارني (حوارات) جاء فيه: «لم تجد المبدعين سوى أولئك الذين لم ينتظروا مجيئك لتنسحب عنهم تسمية المؤلف، فكلّما قمنا بتعيين مؤلف إلا وأخضعنا الفكر لصورة ما، وجعلنا من الكتابة نشاطاً مختلفاً عن الحياة، تكون لها غاياتها في ذاتها، تكون لخدمة غايات مضادة للحياة على نحو أفضل». انظر: (جيل دولوز وكلير بارني: حوارات في الفلسفة والأدب، ترجمة: عبد الحي أزرقان وأحمد العلمي، ص٣٦، أفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩٩).

٥ عادل حدجامي: المصدر نفسه، ص ١٤٧.

٦ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مقدِّمة المترجمة الدكتورة وفاء شعبان، ص ١١.

٧ جيل دولوز وكلير بارني: حوارات في الفلسفة والأدب، ص ١٩.

٨ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ٣٧ – ٣٨

٩ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٩١.

١٠ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٥٢٥، وص ٨٥.

١١ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٥٢٥.

١٢ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٨.

١٣ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٥٢٥، وص ٨٥.

١٤ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٥٢٥.

١٥ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٣٩.

١٦ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٧٥.

١٧ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٩٠.

١٨ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤١٩.

١٩ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

٢٠ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤١٩. يعني مصطلح (Noumène) في الاستخدام الفلسفي الشيء بذاته – بالإنجليزية Thing in itself، وبالألمانية Ding an sich – وهو ما يمثِّل الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن أسفل الظواهر العارضة. وهو مصطلح موروث عن اليونانيين، واستخدمه إيمانويل كانط، وإدموند هوسرل، وتشارلز بيرس، ومارتن هيدغر وغيرهم من الفلاسفة بدلالات مقاربة.

٢١ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

٢٢ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٢١. اضطررنا إلى التصرُّف بتعديل النَّص اختزالاً له.

٢٣ جيل دولوز: المصدر نفسه، انظر: ص ٤٣٦ – ٤٤٦.

٢٤ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٧٠.
٢٥ عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، ص ١١٩ – ١٢٠.
٢٦ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ١٣٢ – ١٣٣.
٢٧ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٣.
٢٨ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٢٩ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣٠ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣١ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣٢ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣٣ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣٤ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٣٢.
٣٥ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٤٢٠.
٣٦ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٧٨.
٣٧ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٧٨.
٣٨ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٧٦.
٣٩ انظر كتاب جيل دولوز وزميله فليكس غتّاري (Mille Plateaux)، ص ٣٤ من النَّص الفرنسي. أورده: (عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، مصدر سابق، ص ٢٣٩).
٤٠ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ٨٣.
٤١ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٣٢٣-٣٢٤.
٤٢ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٣٢٦.
٤٣ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
٤٤ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٣٢٥.
٤٥ عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، ص ١١٦.
٤٦ عادل حدجامي: المصدر نفسه، ص ١١٦. وانظر الهامش رقم (٨٣) في الصفحة ذاتها.
٤٧ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ٢٩١.
٤٨ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ٢٩٢.
٤٩ جيل دولوز وكلير بارني: حوارات في الفلسفة والأدب، مصدر سابق، ص ٣٥. يبدو أن هذا النَّص ورد على لسان كلير بارني التي اشتركت مع دولوز في كتابهما المشترك (حوارات في الفلسفة والأدب)، إذ تتضح الكتابة فيه بضمير المخاطب.
٥٠ جيل دولوز وكلير بارني: المصدر نفسه، ص ٣٥ – ٣٦.
٥١ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ١٧٩.
٥٢ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٧٨.
٥٣ جيل دولوز: المصدر نفسه، ص ١٧٩.
٥٤ جيل دولوز: الصورة – الحركة أو فلسفة الصور، ترجمة: حسن عودة، ص ٢٦١ وما بعدها، منشورات وزارة الثقافة السورية – المؤسسة العامة للسينما، دمشق، ١٩٩٧.
٥٥ Deleuze (G), Guattari (F); Capitalisme et Schizophrène Mille Plateaux, pp 111, 123,110, 13, 1980. (Pdf).
وانظر: (عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، ص ٢٣٨، ص ٢٣٩).
٥٦ جيل دولوز: المعرفة والسلطة.. مدخل لقراءة فوكو، ترجمة: د. سالم يفوت، ص ٥٥، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ١٩٨٧.
٥٧ جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ص ٥٣٢.
٥٨ عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، ص ٢٤٠.
٥٩ نشر دولوز بين عامي ١٩٨٦ – ١٩٨٩ كتابين عن السينما، هما:
- Deleuze (G), Cinéma I: L'image - mouvement (1983). Trans. Cinema 1: The Mouvement - Image (1986).
- Deleuze (G), Cinéma II: L'image - temps (1985). Trans. Cinema 2: The Time-Image (1989).
وقام الأستاذ حسن عودة بترجمة الأول منهما تحت عنوان: (الصورة – الحركة أو فلسفة الصور)، مصدر سابق، ونشرته المؤسسة العامة للسينما في وزارة الثقافة السورية بدمشق عام ١٩٩٧.